النار

بشروق الشمس يكون الهجوم الأعنف من النار التي تحاصر القرية قد انتهى.. خلف الهجوم أربعة شبان احترقت أجسادهم وأصبحت جثثًا متفحمة لا يُعرف أصحابها... يشيع القتلى إلى مثواهم الأخير والحزن جاثم على قلوب الأهالي كمارد يأبى الخروج من جسد استباحه فاستلذ المكوث فيه.

عماد: ماذا سنفعل الآن يا فراس؟

فراس: لا شيء.

لا شيء!

ماذا تريدنا أن نفعل؟ ليس لنا إلا أن نستمر في المقاومة.

إلى متى؟ إن النار تحرق شخصًا أو شخصين من أبناء القرية كل يوم.

أتريدنا أن نستسلم لها؟

كلا، ولكن فلنذهب إليها ولنعرف ماذا تريد منا بالضبط.

يذهب فراس بصحبة شقيقه عماد إلى النار... كلما اقتربا منها يشعران بارتفاع شديد في الحرارة... النار تحيط بقريتهم من مختلف الجهات، يرتفع لهيبها ارتفاعات شاهقة في السماء لتحكم حصار القرية وأهلها ... ينظر فراس إلى الأفق فلا يرى سوى النار التي أحالته إلى لون أحمر داكن كئيب...

فراس : ماذا تريدين منا أيتها النار؟

النار: كل شيء.

- ماذا تعنين بذلك؟

كل شيء... كل شيء.

لقد أحرقتِ بساتيننا، وحرمتِنا المياهَ العذبة، حتى جف النهر الذي كان يرفدنا بالمياه.

إن أردتم استعادة بعض ما فقدتموه فعليكم بالخضوع لي إلى الأبد.

كلا لن نفعل (يقولها فراس بغضب وشقيقه عماد يحاول تهدئته).

بعد غد سينتهي الأمر.

- ماذا تقصدين؟

ستعرف ما أقصده بنفسك، ولكن إن أردتم تجنب مصيركم الأسود فعليكم بالاستسلام والطاعة المطلقة لي.

يجتمع أعيان القرية وأبناؤها...

كبير أعيان القرية: اخرجوا من القرية، غادروها إلى الأبد (يوجه كلامه إلى فراس).

فراس: أتعتقدون أن هذا هو الحل الذي سيجلب لكم السلام؟

لقد وعدتنا النار بأنها لن تدمر قريتنا إن غادرتموها.

فراس: وما قيمة القرية من دون شبابها؟

أو ليس هذا أفضل من تدميرها عن بكرة أبيها؟

علينا أن نقاوم.

تقاومون من؟ من يستطيع مواجهة هذه النار؟ إن دخانها يمتد إلى عنان السماء؟ من يقدر على هزيمتها؟

فراس، سنعطيك ومن معك المال الكافي لبدء حياة جديدة في مكان آمن.

أموال من دون وطن كجسد بلا روح (يقولها فراس بحماس ونشوة).

يخرج فراس بصحبة العشرات من شباب القرية ويتفقون على مقاومة النار. يشحذون هممهم، ويتآزرون فيما بينهم ... يتوجهون إلى البئر الرئيسية ويستخرجون منها براميل المياه ويعبئونها في المجانيق... يتخذون مواقعهم استعدادًا لبدء الهجوم ...

فراس: عندما يحل الفجر سنهاجمها، ستكون درجات الحرارة منخفضة، والنار في أدنى قوتها.

مع دقائق الفجر الأولى يبدأ شباب القرية هجومهم، المياه الباردة تنهال على جنود النار فترديهم... تنتشر المياه في أنحاء متفرقة من النار، تضج النار وتصدر حسيسًا مهولا وكأنها تصحو من نوم امتد لآلاف السنين... السماء تتحول إلى شعلة من اللهب... الوجود يصطبغ بلون أصفر معتم... كرات نارية تنهال عليهم يتراكضون في الأرجاء احتماء منها... تصيب الكرات بعضهم، يحاول فراس أن يطفئ أجساد الشبان المحترقة بالماء ولكن الماء لم يعد له أثر.... يفاجأ فراس وعماد

مـن ذلـك، يصـاب الجميـع بالـذهول... يصرـخون في الأنحـاء ... ينهالون باللعنات على النار وجنودها... كرات النار الملتهبة تحول أكثر من خمسة شبان إلى مجرد أشلاء محترقة...

البكاء والنحيب في كل مكان . بكاء النسـاء والأطفـال يسـمع في كافـة أنحـاء القريـة... دمـوع فـراس وعـماد وبقيـة الشـبان تنسـكب بغزارة...

فراس: لقـد صـببنا علـيهم المـاء ولكـن النـار ظلـت مشـتعلة في أجسادهم.

الكل صامت ولا أحد يجيبه...

يوجه خطابه إلى والده ...

أبي صدقني لم نهرب من النار، لقد حاربناها بكـل قوانـا، ولكـن الأمر الغريب أن مياهنا لا تطفئها.

يتقدم منه والده ويمسك كتفيه بشدة...

إنها نار من صنع الشيطان.

ماذا!

إن نار الشيطان لا يطفئها الماء.

وما الذي ينفع معها إذن؟

يزداد ضغطًا على كتفيه..

- لا يطفئ نار الشيطان إلا نار مثلها يا ولدي.

**

يعود فراس وشقيقه عماد إلى منزلهما وهما في غاية الألم والحزن، يحاول والدهما التخفيف عنهما، إلا أن وقع ما حدث أخذ منهما الشيء الكثير...

يستسلم فراس للنوم بينما يبقى عماد مستلقيًا وجهه باتجاه الشرفة متأملا بحرقة سماء الليل المظلم المزين بالنجوم... تقطع عليه خلوته شعلات نيران متحركة سرعان ما تطوق المنزل، يستيقظ فراس على إثر الحرارة الشديدة ...

عماد: إنهم جنود النار يا فراس.

فراس: ماذا يريدون منا؟

- لا شك أنهم جاؤوا لقتلنا.

قاذفات اللهب المخيفة تحيط بهم... القنابل المضيئة تنفجر في محيط البيت محدثة هزات عنيفة...

تشتعل النار في أنحاء متفرقة من المنزل. يقذف فراس وعماد ووالدهما بالنار... يأخذ فراس والده إلى إحدى الغرف للاحتماء بها... يصارع فراس وعماد جنود النار بالأسلحة البيضاء... يسارع شباب القرية إلى مساعدتهما فيفر جنود النار بعد أن دمروا القسم الأكبر من المنزل.

كبير أعيان القرية: اسمع يا فراس، لقد عدنا للتو من مقابلة النار وقد أعطتنا عهدًا بالأمان إذا ما وافقنا على شروطها.

فراس: وما هي؟

أن ترحل أنت ومن معك من شباب القرية.

وماذا أيضا؟

أن نسلم لها البساتين والمياه، وأن نطيعها في كل ما تأمرنا به، وفي مقابل ذلك ستمنحنا الأمان والسلام.

يجيبهم فراس بهدوء قائلا:

ما قيمة حياتكم إذا كنتم ستقدمون لها كل شيء وهي في المقابل لن تمنحكم سوى الحياة التي تمنحها للدواب؟

أحد أتباع كبير أعيان القرية: أليس هذا أفضل من الموت حرقًا؟ أليس ذلك أفضل من أن يدفن أحدنا وهو أقرب إلى كونه فحمة سوداء بالية؟

عماد: الموت في النور أفضل ألف مرة من العيش في الظلام.

يرفض شباب القرية شروط النار ويصرون على المقاومة، يعبئون قواهم استعدادًا للمعركة الكبرى مع النار... مع انبلاج الفجر تهاجم النار القرية من مختلف الجهات .... يغير جنودها على ما تبقى من البساتين فيحيلونها إلى أكوام من الرماد.... المياه تتحول إلى سيل من الحمم البركانية... الرياح الصفراء تقضي على تغاريد البلابل وزغردة العصافير... تتساقط الحمم الحجرية من الجبال المحيطة بالقرية... تخور الأبقار خوفًا ورعبًا... وتنبح الكلاب نباح المستغيث... تطير الطيور محاولة الفرار من الجحيم فتصطدم بعضها ببعض فتتساقط ميتة على

الأرض... لأول مرة تنهق الحمير وجلا وخوفا من جنود النار الذين لم يرحموا أحدًا، حتى الأموات في قبورهم بدوا وكأنهم يستغيثون من النار وحربها المجنونة... فراس وعماد وبقية شباب القرية لا يزالون يقاومون النار، كلما نظروا إلى زرقة السماء في النهار وسوادها في الليل، وعدم قدرة النار على حجب ضوء القمر وتلألؤ النجوم زاد أملهم بنصرهم عليها في يوم ما.